القراءات القرآنية في كتاب المخصص لابن سيده
دراسة وصفية تحليلية

د. عصام بن دخيل الله الحربي
أستاذ القراءات المشارك بجامعة أم القرى
بمكة المكرمة

الملخص

موضوع البحث: يعنى هذا البحث بدراسة القراءات الواردة في كتاب المخصص لابن سيده (ت: ٤٥٨ هـ) وبيان منهج مؤلفه فيه من ناحية القراءات وتوجيهها ومصادرها في كتابه، وبيان مكانة هذا الكتاب في علوم القراءات، وما يمكن أن يستفاد منه، علماً أنه أكبر المعاجم اللغوية المصنفة حسب المعاني.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى بيان جهود ابن سيده ومنهجه في خدمة القراءات من جهة تخصصه وإمامته في اللغة والنحو، من خلال كتابه المخصص.

منهج البحث: سلكت في هذا البحث منهج الاستقراء والتحليل للقواعد العامة وإيراد الأمثلة الموضحة للمقصود.

أهم النتائج: أن ابن سيده كان على دراية كبيرة بعلم القراءات، وأنه قد وجه جميع القراءات التي أوردها في كتابه، وتوجيهه إما بالنص، وإما بالاتكال على السياق العام للمادة التي يشرحها، وأن مذهب ابن سيده النحوي هو مذهب المدرسة الأندلسية التي تجمع بين المدرستين البصرية والكوفية، وهي أميل إلى البصرية كثيراً.

الكلمات المفتاحية: ابن سيده، المخصص، القراءات، التوجيه.

القراءات القرآنية في كتاب المخصص لابن سيده

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد: فهذا بحث موجز رُمتُ فيه دراسة كتاب المخصص، للإمام أبي الحسن علي بن سيده من جهة علم القراءات، بينت فيه منهجه في التعامل مع الحروف المروية عن القراء متواترها وشاذها، لما كان هذا الكتاب –كما هو شأن سائر كتب ابن سيده – مرجعا للغة هامًا، وقد اتخذه الناس في بابه إمامًا، وكانت القراءات القرآنية من موارده الأصيلة رأيت أن من المفيد للقراء وطلاب العلم اطلاعهم على الجانب القرائي لهذا الكتاب، والله أسأله التوفيق للإتمام.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إحاطة القارئ الكريم علمًا حول القراءات في كتاب المخصص، وبيان منهج الإمام ابن سيده في دراسة القراءات في هذا الكتاب، وموقفه منها.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

هذا الموضوع يستمد أهميته من إمامة الإمام ابن سيده في اللغة العربية عموما، والدارس لِلُّغة والقراءات بحاجة إلى الاطلاع على تفاصيل ما حرره الإمام ابن سيده من المسائل.

زيادة أن الكتاب أُلف في زمن تكَّون علم القراءات في الأندلس، التي تعتبر المرحلة الثانية لازدهار علم القراءات في تسبيع السبع، فقد كان معاصرا للإمام الداني وغيره من أئمة القراءات.

وللوقوف على آراء الإمام ابن سيده أهمية كبيرة وخاصة في كتابه المخصص.

وما تقدم ذكره من أهمية هو أكبر دافع لي لاختيار هذا الموضوع، زيادة على رغبتي الشخصية لدراسة هذا الكتاب والالتصاق به برهة من الزمن لزيادة التحصيل العلمي.

الدراسات السابقة:

لم أقف – في حدود اطلاعي – على أي بحث يحمل هذا الاسم أو يهتم بهذا الموضوع، وبهذا يكون عدم أي دراسة سابقة حافزا لتناوله، ومن أعظم أسباب اختيار الموضوع.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة وفهارس على النحو التالي:

المقدمة وفيها:

أهداف البحث.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

خطة البحث.

منهج البحث.

الفصل الأول: التعريف بابن سيده وبكتابه المخصص، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بابن سيده، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبه وحياته.

المطلب الثاني: حياته العلمية وعصره.

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه.

المطلب الرابع: مؤلفاته

المبحث الثاني: التعريف بكتابه المخصص.

الفصل الثاني: تعامل ابن سيده مع القراءات في كتابه، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: موقفه من القراءات.

المبحث الثاني: منهجه في إيراد القراءات في كتابه.

المبحث الثالث: منهجه في توجيه القراءات في كتابه.

المبحث الرابع: مصادره في القراءات في كتابه.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

- سلكت في هذه الدراسة منهج الاستقراء والتحليل لكلام ابن سيده، محاولاً بذلك الوصول إلى تحديد منهجية في دراسة القراءات عنده، فتتبعت جميع القراءات الواردة في كتاب المخصص، ثم تناولتها بالتحليل والدراسة بما يقتضيه منهج البحث العلمي.
- اعتمدت منهج الاستنباط والاستدلال بالقرائن فيما يتعلق بالكلام على شيوخه وتلاميذه، حيث عَدِمَ النص في ذلك.
- حاولت في البحثِ بيان الفرق بين الدراسات اللغوية والدراسات القرائية عند ابن سيده في كتابه المخصص.

- لم ألتزم في هذا البحث إيراد جميع القراءات القرآنية التي جاءت في المخصص، وإنما أوردت نماذج منها على حسب ما يُحتاج إليه في توضيح المسألة المدروسة.
- أفرق بين القراءات المتواترة والشاذة بجعل القراءات المتواترة بين قوسين مزهرين مكتوبة بالخط العثماني، والقراءات الشاذة بين قوين هلالين مكتوبة بالخط الإملائي.
- عرضت آراء ابن سيده النحوية واللغوية على آراء النحويين من المدرستين للوقوف على مذهبه النحوي.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

الفصل الأول: التعريف بابن سيده وبكتابه المخصص، وفيه مبحثان:

القراءات القرآنية في كتاب المخصص لابن سيده

المبحث الأول: التعريف بابن سيده[1].

المطلب الأول: اسمه ونسبه وحياته

هو علي بن أحمد، وقيل: ابن إسماعيل، اشتَهر بابن سيده، أبو الحسن، الضرير بن الضرير، المرسي، الأندلسي، إمام أهل اللغة في عصره بلا منازع.

ولد سنة (٣٩٨هـ) في مُرْسِيَة[2].

درس على علماء مُرْسِيَة في أول حياته، فحصَّلَ العلوم في وقت مبكر، ساعده على ذلك قوة حافظته، يحكي أبو عمر الطلمنكي قال: "دخلت مرسية فتشبث بي أهلها ليسمعوا علي الغريب المصنف، فقلت لهم: انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده، فقرأ علي من أوله إلى آخره، فعجبت من حفظه"[3].

شهد له القاصي والداني بقوته في العربية وإحاطته الكاملة بها.

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات الأمم، صاعد (٧٧)، جذوة المقتبس، الحميدي (٤٥٢)، مطمح الأنفس، الإشبيلي (٢٩١)، الصلة، ابن بشكوال (٣٩٦)، بغية الملتمس، الضبي (٥٤٥/٢)، معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٨/٤)، إنباه الرواة، القفطي (٢٢٥/٢)، مرآة الجنان، اليافعي (٦٤/٣)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣٣٠/٣)، إشارة التعيين، اليماني (٢١٠)، تاريخ الإسلام، الذهبي (٩٩/١٠)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٤٤/١٨)، تاريخ ابن الوردي (٣٦٠/١)، مسالك الأبصار، ابن فضل الله العمري (٦١/٧)، الوافي بالوفيات، الصفدي (١٠٠/٢٠)، نكث الهميان، الصفدي (١٨٨)، البداية والنهاية، ابن كثير (١١/١٦)، الديباج المذهب، ابن فرحون (١٠٦/٢)، لسان الميزان، ابن حجر (٥٠٠/٥)، شذرات الذهب، ابن العماد (٢٥٠/٥)، الأعلام، الزركلي (٢٦٣/٤).

(٢) مدينة بالأندلس اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، وهي بضم أولها، وسكون الراء، وكسر السين، وفتح الياء مخففة، انظر: معجم البلدان، الحموي (١٠٧/٥)، الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري(٥٣٩).

(٣) الصلة، ابن بشكوال (٣٩٧).

عاش في دانية[١] حيث كانت مزدهرة بالعلم والعلماء في عهد أبي الجيش مجاهد ابن عبد الله العامري، وكان منقطعاً إليه، وألف له المؤلفات.

توفي سنة (٤٥٨هـ) عن ستين عاما.

المطلب الثاني: حياته العلمية وعصره

عاش ابن سيده في الدولة العامرية في الأندلس[٢]، وكان عصر هذه الدولة من أزهى العصور العلمية بالنسبة للأندلس؛ حيث كان ملوك وأمراء هذه الدولة يعتنون بالعلم أشد عناية، ويتنافسون في جلب العلماء إلى نواديهم وجلب الكتب إلى مكتباتهم[٣].

وهذه الأمور ساعدت ابن سيده على إكمال مسيرته العلمية واستغلال مواهبه أتم استغلال، حتى شهد له الناس بأنه أحفظ الناس للغة، قال أبو طاهر السلفي: " سمعت أبا عبد الله محمد بن الحسن بن أبي زرارة اللغوي يقول: كان بالمشرق لغويٌّ وبالمغرب لغويٌّ في عصر واحد، ولم يكن لهما ثالث، وهما ضريران، فالمشرقي أبو العلاء التنوخي بالمعَرَّة، والمغربيُّ ابن سيده الأندلسيُّ، وابن سيده أعلمُ من المعرِّيِّ، أملى من صدره كتاب المحكم ثلاثين مجلداً، وما في كتب اللغة أحسن منه"[٤].

(١) مدينة بشرق الأندلس على البحر، كانت قاعدة أبي الجيش العامري، وأهلها أقرأ أهل الأندلس، ومنها شيخ القراء أبو عمرو الداني، وتقع اليوم في جنوب شرق أسبانيا، انظر: معجم البلدان، الحموي (٤٣٤/٢)، الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري (٢٣١/١).

(٢) نشأت الدولة العامرية في الأندلس على يد محمد بن أبي عامر سنة ٣٦٨هـ وسقطت سنة ٣٩٩هـ، وكانت تابعة للخلافة الأموية في الأندلس. انظر: الدولة العامرية في الأندلس دراسة سياسية حضارية.

(٣) انظر: بغية الملتمس، الضبي (٦٣٣/٢)، معجم البلدان، الحموي (٤٣٤/٢).

(٤) معجم السفر، السلفي (٣٤٨)، وبنحوه نقل الفيروز أبادي عن محمد بن الحسن في البلغة (٧٦).

وقد كان الإمام ابن سيده ذا حظوة عند أمراء هذه الدولة مكنته من تأليف مؤلفاته، وكلها كانت بطلبهم ودعمهم[١].

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه

نظراً لسعة علم ابن سيده باللغة وغيرها من العلوم وقيامه بتحقيق مسائلها، ولشهرته ومكانته: فمن المفترض أن يكون له شيوخ كثير قرأ عليهم وسمع منهم، إلا أن كتب التراجم والتاريخ قد شحت علينا فلم تذكر من شيوخه إلا القليل، وهم ثلاثة:

١- أبوه (توفي بعد الأربعمائة بمدة)[٢].

٢- صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي اللغوي (ت ٤١٧هـ)[٣].

٣- أحمد بن محمد بن عبد الله أبو عمر الطلمنكي(ت ٤٢٩هـ)[٤].

وكذلك الأمر في تلاميذه، فإن مكانة ابن سيده العلمية وخاصة في اللغة التي صار مقدماً فيها توجب أن يكون له تلاميذ كثير، إلا أن كتب التراجم والتواريخ لم تذكر شيئاً عنهم سوى ما ذكر من أخذ الأمير مجاهد العامري وابنه عنه، وهذا عجيب حيث إن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن تلاميذه.

المطلب الرابع: مؤلفاته:

---

(١) انظر مقدمة المؤلف في كتابه المحكم (٦/١).

(٢) ترجمته في: الصلة، ابن بشكوال (١٠٥)، وقد سبق ذكر اختلاف أهل التراجم في اسمه على أقوال: أشهرها إسماعيل وأحمد في ص٨.

(٣) ترجمته في: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني (٨/٧)، معجم الأدباء (١٤٣٩/٤)، تاريخ الإسلام (٢٨١/٩).

(٤) ترجمته في الصلة، ابن بشكوال (٤٨)، معرفة القراء الكبار، الذهبي (٧٣٣/٢)، غاية النهاية، ابن الجزري (١٢٠/١).

من تمام نعمة الله على العالم أن يُرزق حسن التأليف وجودته؛ ليبث ما من الله به عليه من العلوم، وقد كان لابن سيده حظٌ وافر من هذه النعمة؛ حيث إنَّه ألفَ المؤلفاتِ التي لا يجاريه فيها أحد، وأصبحت فيما بعد مصدراً لا يستغنى عنه في جميع المؤلفات اللغوية بعده، كلسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس وغيرها، وقد ذكر المترجمون له (١٢) مؤلفاً وهذه أسماؤها:

١- المحكم والمحيط الأعظم(١).

٢- المخصص(٢).

٣- شرح المشكل من شعر المتنبي(٣).

٤- شرح إصلاح المنطق(٤).

٥- العويص في شرح إصلاح المنطق(٥).

٦- الأنيق في شرح الحماسة(٦).

(١) طبع عدة طبعات أجودها التي بمعهد المخطوطات العربية عام ٢٠٠٣م.

(٢) طبع بمطبعة بولاق ١٣١٦هـ، ودار صادر عام ٢٠١٠م.

(٣) نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٦م.

(٤) انظر: معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٨/٤)، الوافي بالوفيات (١٠١/٢٠) .

(٥) انظر: معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٩/٤).

(٦) انظر: الصلة، ابن بشكوال (٣٩٦) ، معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٨/٤)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣٣٠/٣) ، تاريخ الإسلام، الذهبي (٩٩/١٠).

٧- العالم والمتعلم(١).

٨- الوافي في علم أحكام القوافي(٢).

٩- شاذ اللغة(٣).

١٠- شرح كتاب الأخفش(٤).

١١- كتاب في التذكير والتأنيث(٥).

١٢- العالم في اللغة(٦).

١٣- وزعم بعض الباحثين أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات ابن سيده، وأن الغلط نشأ من ياقوت الحموي وتبعه على ذلك من ذكره بعده، واستصوبوا أن يكون من تأليف أحمد بن أبان بن سيد، فليبحث(٧).

١٤- وكل هذه المؤلفات الآن في حكم المفقود، ولا يعلم عنها شيء، سوى الثلاثة الأول؛ فإنها قد وجدت، وحققت، وطبعت، والحمد لله.

(١) انظر: معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٩/٤)، الوافي بالوفيات، الصفدي (١٠١/٢٠)، لسان الميزان، ابن حجر (٢٠٦/٤).

(٢) ذكره في المحكم (٤/١)، ونُسب له أيضاً في معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٩/٤)، والوافي بالوفيات، الصفدي (١٠١/٢٠) .

(٣) انظر: معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٩/٤)، تاريخ الإسلام، الذهبي (٩٩/١٠) ، الوافي بالوفيات، الصفدي (١٠١/٢٠).

(٤) انظر: معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٩/٤) ، الوافي بالوفيات، الصفدي (١٠١/٢٠).

(٥) نسبه إلى نفسه في مقدمة المحكم (١٤/١).

(٦) انظر: معجم الأدباء، الحموي (١٦٤٨/٤)، الوافي بالوفيات، الصفدي (١٠١/٢٠).

(٧) انظر: مقدمة تحقيق المحكم (٨/١).

المبحث الثاني: التعريف بكتاب المخصص

هذا الكتاب المقصود بالدراسة هو كتاب المخصص، من تأليف الإمام اللغوي علي بن إسماعيل ابن سيده الأندلسي، من أهم مؤلفاته بعد المحكم، وقد ألفه قبله، رتبه على طريقة ترتيب كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام، وهي التي تعني تخصيص أبواب عامة من الأجناس ثم ذكر كل ما يتعلق بها، وذلك مثل الكلام على الإنسان والحيوان وهكذا.

ولعل هذا هو مراده من تسميته بالمخصص، كأنه يشير إلى ابتكار تسميته لهذا اللون من التأليف في اللغة.

وعلى كلٍ، فهو أكبر كتاب أُلِّف في هذه الطريقة، حيث إنه ضمنه كتاب أبي عبيد المشار إليه، وزاد عليه أضعافه مما استفاده من الكتب المخصصة في الأنواع والأجناس.

ومن طالع هذا الكتاب علم مدى سعة علم ابن سيده باللغة وكثرة حفظه للمتون والأساليب اللغوية.

قال عنه الزركلي:"وهو من أثمن كنوز العربية"(١).

قال أحمد الشرقاوي إقبال:"هو أجود معاجم الموضوعات تصنيفا وأوعبها مادة"(٢).

طبع طبعته الأولى في المطبعة الأميرية ببولاق عام ١٣١٦هـ، وطبعته تصويرا دار الكتب العلمية بلبنان عام ٢٠٠٥م.

---

(١) الأعلام (٤/٢٦٤).

(٢) معجم المعاجم: (١٥٣).

الفصل الثاني: منهج ابن سيده في التعامل مع القراءات في كتابه:

المبحث الأول: موقفه من القراءات

يمتاز عصر ابن سيده بالعناية بالتحقيق في علم القراءات وخاصة في القطر الأندلسي، يدل على ذلك كثرة المؤلفات فيه، ويمتاز أيضاً بالتمييز بين المتواتر من الحروف والشاذ، كما امتاز بوجود أعلام كبار في علم القراءات، مثل الإمام أبي عمرو الداني، ومكي بن أبي طالب القيسي، وغيرهما. ولم يكن ابن سيده غائباً عن هذه النهضة العلمية في علم القراءات، ولم يبدِ أي مخالفة لها في النتائج الكبرى التي وصلت إليها، ومنها اعتبار القراءات السبع متواترة، والحكم بتشذيذ ما سواها.

ومن خلال ما تقدم ذكره من الشائع في عصره رحمه الله، ومن خلال استقراء القراءات في كتاب المخصص نخلص إلى ما يلي:

ينبغي للناظر في كتاب (المخصص) من جهة القراءات أن يأخذ بعين الاعتبار أن هذا الكتاب ليس كتابَ قراءاتٍ بالأصالة، وإنما هو كتابُ لغةٍ، فهو يورد القراءات؛ ليحتج بها لإثبات معنى أو بنية كلمة، كما يحتج في ذلك بالشعر وكلام العرب، فلا يحاكمه القارئ إلى اصطلاحات القراء وقواعدهم، بل يجب عليه أن ينظر إليه في هذا الإطار.

أن ابن سيده كان يقول بتواتر القراءات السبع كما هو الشائع في عصره، ويشهد لذلك عدم تشذيذه لشيء منها في كتابه، أما القراءات الثلاث المتممة للعشرة وأعني بها قراءة الأئمة، أبي جعفر المدني، ويعقوب البصري، وخلف الكوفي، فليس لابن سيده نص في تشذيذها أو تصحيحها، وقد تتبعت انفراداتهم عن القراء السبعة فوجدت أن ابن سيده قد أورد شيئاً منها في كتابه دون نسبته إليهم، بل صدَّرَ بعضها بصيغة: (قرئ) كقراءة ﭽلَنُحْرِقَنَّهُۥﭼ [طه:٩٧] بإسكان الحاء وكسر الراء

مخففة، وهي قراءة الإمام أبي جعفر من رواية ابن جماز عنه، وبعضها بصيغة:(القراءة الأخرى) كقراءة ﭽإِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُم تَقِيَّةًﭼ [آل عمران:٢٨] بفتح التاء وكسر القاف بعدها ياء مشددة وهي قراءة الإمام يعقوب، فلا يمكن – والحالة ما ذكرت – القطعُ بموقفه منها، كما لا يمكن القطع بتحديد موقف بعض علماء عصره منها.

١– عرض الإمام ابن سيده في كتاب المخصص إلى نقد بعض القراءات، فوصف بعضها بالشذوذ، وبعضها بالندرة، وخطَّأ بعضها، وليكن كلامنا هنا لبيان مراده بهذه الألفاظ ليتضح بذلك هل ابن سيده ممن يرد شيئاً من القراءات أم لا؟

قال رحمه الله:

- "إِلَّا أَنه قد رُوي أَن الْحسن قد قَرَأَ: (وأعْتَدَتْ لهُنَّ مُتَّكَاءاً) [يوسف: ٣١] بالمدِّ على مُفْتَعال وهو شاذ".
- "وَأما مَا حُكِي من أَن بعضَهم قَرَأَ: {وقُولُوا للناسِ حُسْنَى} [البقرة: ٨٣] فشاذّ عَن الِاسْتِعْمَال وَالْقِيَاس".
- " وَمن الشاذِّ قراءةُ من قَرَأَ (يَتَوفَّوْن)[البقرة: ٢٤] بصيغة الفاعِل".
- " وَزعم سيبويه أَن بعض أهل الْحجاز يهمزون ﭽ النَّبِيءﭼ وَهِي لُغَة رَدِيئَة، وَلم يستردئها سيبويه ذهابا مِنْهُ إِلَى أَن أَصله غير الْهَمْز، وَإِنَّمَا استردأها من حَيْثُ كثُرَ اسْتِعْمَال الجمهور من الْعَرَب لَهَا من غير همز".

فأما وصفه لبعض القراءات بالشذوذ، أو وصفه لها بما ظاهره رفضها فغالب ذلك وقع منه على الشاذ في اصطلاح القراء، فلا إشكال فيه؛ إذ هو شاذ قراءة ولغة، وإنما الإشكال فيما وقع منه في حق المتواتر بذلك، كما في المثال الأخير، وباستقراء المواضع التي شذَّذَ أو حكم فيها بشذوذ المتواتر تبين لي أنه لا يريد بذلك الشاذ في اصطلاح القراء، الذي يترتب عليه رفض القراءة وعدم جواز التلاوة بها، وإنما مراده الشاذ في اصطلاح النحويين، وهو ما نقل من كلام العرب مخالفاً لقاعدة معلومة عند النحويين، أو جاء مخالفاً للمشهور من المسموعات من كلام العرب.

وقد عَبَّرَ عنه في موضع آخر بالندرة واستعملهما بمعنى واحد، حيث قال: "فأما قراءة بعضهم: ﭽ يكادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ بِالأَبْصَارِ ﭼ[النور:٤٣] فنادر"(١).

(١) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، انظر: النشر، ابن الجزري (٤/٢٥٠٢).

المبحث الثاني: منهجه في إيراد القراءات

لم ينص ابن سيده على بيان منهجه في إيراد القراءات، ولا على كيفية تعامله معها متواترة كانت أو شاذة، لا من قريب ولا من بعيد، وقد اجتهدت في بيان منهجه في ذلك بعد الاستقراء والتتبع، وهذا ما وصلت إليه:

١- أولاً يجب أن يعلم أن ابن سيده كان يورد القراءات في سياق لغوي، بمعنى أنه يوردها للاحتجاج اللغويّ لإثبات كلمة، أو بناء، أو ضبط، أو غير ذلك من أحوال الكلم واختلافها، فلا ينبغي أن نستغرب إذا وجدناه مثلاً يساوي بين القراءات الشاذة والمتواترة في الاعتبار والذكر، أو وجدناه يُعَبِّرُ بما يُفْهَمُ منه رد بعض المتواتر(١) غير ناظر إلى سنده ولا منبه عليه، لأن ذلك كان بالنسبة إليه في سياق لغوي محض.

٢- في عزوه للقراءات إلى أصحابها كان تارة ينص على صاحب القراءة الموردة، وتارات كان يوردها دون عزو، وهذا الذي سلكه في هذا الكتاب وفي المحكم أيضاً.

وكون الغالب عليه عدم نسبة القراءة إلى أصحابها ربما يرجع ذلك إلى عدم اهتمام الناس في زمنه بذكر المصادر اكتفاء بثقة الشيخ، أو أن القراءات من المسلم ثبوت الحجة اللغوية بها، فلا شيء يدعو إلى ذكر أصحابها وتوثيقها توثيقاً تاماً، أو أن التوثيق في ذلك ربما أخرج الكتاب عن المقصود الذي هو في اللغة خاصة.

هذا ما بدا لي من أسباب أحسب أنها هي التي كانت وراء عدم ذكرهم للنسبة، وقد يكون معها غيرها فليبحث، ولا تزاحم في الفوائد.

(١) وقد مرَّ في مبحث بيان موقفه من القراءات أن الصحيح أن ابن سيده لم يرد أي قراءة متواترة.

القراءات القرآنية في كتاب المخصص لابن سيده

ترك المؤلف –كما هي عادة المؤلفين في زمانه– ذكر مصادره في القراءات، فلم أجده –في حدود اطلاعي– يذكر المصنفات التي رجع إليها، وإنما كان في بعض الأحيان يذكر المصنفين والأئمة كابن جني والأخفش وثعلب وغيرهم، ولم ينص على مصنفاتهم التي أخذ منها بالتعيين(١).

كثيراً ما كان ابن سيده يورد القراءات المتواترة بصيغة (قرئ) المبني للمفعول أو ما يؤدي مؤدى هذه العبارة، وهي عبارة – على ما جرى به الاصطلاح عند المتأخرين – تستعمل لما لم يصح من الأخبار، ويصفها بعضهم بصيغة التمريض.

ولكن ابن سيده سلك في إطلاقها المسلك اللغويَّ على الأصل في دلالتها على الفاعل المجهول مجرداً عن أي معنى خارج، فلا ينبغي أن ينكر عليه في استعمال ذلك، ومثال ذلك قوله:

"وأما قَوْله عز وَجل **سمم** مُلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ **سمم**[الفاتحة:٤] فقد قُرئ بِإِثْبَات الْألف وإسقاطها".

"فَأَما قَوْله تَعَالَى: **سمم** فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَى**سمم**[الصافات: ١٠٢] فقد قرئَ **سمم**تَرَى**سمم** وچتُرِيچ ".

ففي هذين المثالين نجد أنه استعمل صيغة المبني للمجهول في القراءات المتواترة، وهذا قطعاً ينص على ما شرحته من أنه لا يريد المعنى الاصطلاحي لـ(قرئ)، وإنما يريد المعنى اللغوي المجرد.

من منهجه في إيراد القراءات: أنه يوردها بحسب المادة المناسبة للحرف المختلف فيه، وتبعا لذلك تجد القراءات في بعض الأحيان مفرقة في مواضع مختلفة من كتابه، وتارة تجدها مجتمعة في مادة واحدة، ومرد ذلك كله إلى أنه إذا كان اختلاف القراءتين يؤدي إلى الاختلاف في المادة اللغوية، فإنه يُفرِّق القراءات بحسب المادة، وإذا لم تختلف المادة فإنه يجمعها في موضع واحد، فمن القراءات التي فرقها بحسب ورود مادتها العلمية قراءة: (وقولوا للناس حسنى) [البقرة:٨٣] فقد ذكرها في باب

---

(١) وللاستزادة انظر مبحث مصادر المؤلف ص (٣١).

الحسن والقبح في الوجه والجسم، وفي باب مَا جَاءَ من المصادر وَفِيه ألف التَّأْنِيث، وفي باب مما جاء على وزن فعلى، وفي باب فعلاء، وفي بَاب لَحَاق علامةِ التَّأْنِيث للأسماءِ وتقسيمِ العَلاماتِ، أما القراءات التي جمعها في مكان واحد؛ لاجتماع مادتها اللغوية فيه، فمثالها: قراءة ﭽﭐﭼ [الأنعام:١٠٥] جمعها في باب الكتاب وآلاته.

ينقل ابن سيده كلام علماء النحو واللغة في توجيه بعض القراءات، ولم يقتصر على النقل في بعض المواضع، بل كان يُتْبِعُ ذلك بنقده الذي يدل على طول باعه في علم اللغة والنحو، وذلك مثل قوله:

" قَالَ أَبُو عَليّ: وَقد قرئَ وﭽلَنُحَرِّقَنَّهُﭼ و**سمم**لَّنُحَرِّقَنَّهُ**سمم** [طه:٩٧] وهما سَوَاء فِي الْمَعْنى، وَلَيْسَت حرّقته مكثّرة عَن حرقْته كَمَا ذهب إِلَيْهِ الزّجاج من أَن لنُحرّقنّه فِي معنى لنبرُدنّه مرّة بعد مرّة؛ لِأَن الْجَوْهَر المبرود لَا يحْتَمل ذَلِك".

وقوله:"فأمَّا قِرَاءَة من قَرَأَ (وقُولُوا للنَّاس حُسْنَى) فَزعم الفارسيُّ أَنه اسْم للمَصْدر، وَقَوله (لِلَّذِينَ أحْسنوا الحُسْنَى) عَنَى بِهِ الجَنَّة، والمحَاسِن المواضِعُ الحَسَنة من البَدَن واحِدُها مَحْسَن وَلَيْسَ بالقويِّ، قَالَ سيبويه: هُوَ جَمْع لَا واحِدَ لَهُ."

الغالب عليه ترك ضبط القراءات التي يوردها، وذلك اتكالاً منه على سياق المادة التي استشهد لها بالقراءة، وفي بعض المواضع ضبط ببعض طرق الضبط المشهورة مثل:

الضبط ببيان نوع الحرف مثل قوله:

- " فأما ما حكاه الأصمعي من قراءة بعضهم (الزراط) [الفاتحة: ٦] بالزاي المخلصة فخطأ؛ إنما سمع به المضارعة فتوهمها زايا".

- "وقد قرئ: ﭽأَنِ اسْرِ بِأَهلِكَﭼ بألف القطع والوصل".

الضبط ببيان نوع الحركة، مثل قوله:

" وفي التنزيل **سمه** يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ**سمم** [البقرة:٢] وقد قريء بكسر الطاء".

"وقوله تعالى: **سمه** وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ**سمم**[البقرة:٥٠] أي قسمناه وشققناه، وكل ما شققته فقد فرقته، ابن جني (فَرَّقنا بكم البحر) بالتشديد قراءة شاذة، أي جعلناه فِرَقا وأقساما؛ لأن الفِرقَ القسم".

الضبط بالتشبيه بالمثال الأشهر، مثل قوله:

" ابن جني: قراءة من قرأ: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خَطَا) [النساء: ٩٢] على مثال قفا، على حذف الهمزة البتة، كيجيك ويسوك".

وقوله:" وَمن قَرَأَ ﭽﭐدِرِّيءٞﭼ [النور: ٣٥] فَهُوَ مثل صِدِّيق".

الضبط ببيان الأصل الصرفي، مثل قوله:

" إِلَّا أَنه قد رُوي أَن الْحسن قد قَرَأَ: (وأعْتَدَتْ لهُنَّ مُتَّكَاءاً) [يوسف: ٣١] بِالْمدِّ على مُفْتَعال، وَهُوَ شَاذ".

الضبط ببيان نوع الوزن، مثل قوله:

" ابْن جني وَمن الشاذِّ قراءةُ من قَرَأَ (يَتَوفَّوْن) [البقرة:٢٣٤] بصيغة الفاعِل".

وقوله:" فَأَما قِرَاءَة من قَرَأَ (المصَوَّرُ) [الحشر:٢٤] على لفظ الْمَفْعُول فَلَا تصح إِذْ لَا معنى لَهَا؛ لِأَن المصَوَّرُ يَقْتَضِي مُصَوِّراً".

المبحث الثالث: منهجه في التوجيه

لم يزل النحويُّونَ في كلِّ زمان ومكان يتعرضون لقراءات القرآن الكريم بالإعراب وأنواع التوجيهات والتخريجات التي توجبها الصناعة النحوية، حتى صار هذا الفعل من جملة العلوم اللغوية التي لا بد للنحوي واللغوي من أن يكون له نصيب منها، وذلك لتعلقها بأفصح كلام.

وعلى ذلك سار الإمام ابن سيده، فلا توجد هناك مناسبة في مادة من مواد اللغة إلَّا وأورد في كتابه من الآيات أو القراءات ما يناسب المقام، وأتى له بتوجيهات لغوية، ناقلاً عن غيره، أو مجتهداً فيها.

وفي هذا المبحث أود أن أصف منهجه في هذا التوجيه، وذلك في النقاط التالية:

بالنسبة إلى تعيين مذهبه النحوي، لا نستطيع الجزم بانتمائه إلى مدرسة معينة، لا إلى مدرسة البصريين، أو إلى مدرسة الكوفيين، وذلك لعدم تصريحه بذلك، ولأنه في كتابه يعتمد كلا المدرستين، لذلك فالحكم الذي ينبغي التصريح به في هذه المسألة هو أن يقال: إن الإمام ابن سيده من أئمة المدرسة الأندلسية، ومن المعلوم أن المدرسة الأندلسية قد جمعت بين المدرستين، واستفادت من علوم المِصْرَين، وإن كانت إلى البصريين أميل في الإطار العام للنحو العربي، لكنها لم تهمل ما تضمنه المذهب الكوفي من الفوائد والمحاسن(١).

والإمام ابن سيده يظهر لي أنه لم يخرج عن مدرسته التي هو من صناعها، يدل على ذلك تنوع تعامله، في مثل قوله:

- "فقد يكون جمع تِجار[يعني تُجُر]، على أَنَّ سيبويه لا يَطْرُدُ جمع الجمع، ونظيره على رأي أبي

(١) انظر: المدارس النحوية، شوقي (٢٩٠ – ٢٩١)، في أصول النحو، الأفغاني (٢٣١)، خصائص مذهب الأندلس النحوي، الهيتي (٤٧).

الحسن قراءة من قرأ: ﭽفرُهُنٌ مَقْبُوضَةٌﭼ[البقرة:٢٨٣]، قال: هو جمع رِهان: الذي هو جمع رَهْن، وحمله أبو علي على أنه جمع رَهْن، كسَحْل وسُحُل، وإنما ذلك لما ذهب إليه سيبويه من التحجير على جمع الجمع"

● وَ"كَانَ الفرَّاء وغيرُه من الْكُوفِيّين يجْعَلُونَ التَّفْعال بِمَنْزِلَة التفعيل، والألفَ عِوَضاً من الْيَاء، ويجعلون ألف التّكْرَار والتَّرْداد بِمَنْزِلَة ياءِ تَكْرِير وتَرْدِيد، والقولُ مَا قَالَه سيبويه؛ لأَنَّهُ يُقَال التَّلْعاب، وَلَا يُقَال التَّلْعيب".

ففي المثال الأول نجد أن ابن سيده يحتج بكلام سيبويه إمام البصرية لإثبات المسألة، ولا يعترض، ولا يناقش.

وفي المثال الثاني نجد أنه يحتج بكلام سيبويه ويرد به على مذهب الكوفيين.

● وعَلى هَذَا الْبَاب وجَّه الفارسيُّ قِرَاءَة من قَرَأَ (مِن فِضَّةٍ قُدِّروها تَقديرا) [الإنسان:١٦]، أَي قُدِّروا عَلَيْهَا، وأنْشَد:

كأنَّه لاحِقُ الأقْرابِ فِي لُقُجٍ أَسْمَى بِهِنَّ وعَزَّتْه الأناصيلُ

أَرَادَ عَزَّتْ عَلَيْهِ الأناصيل، فَأَما مَا رَوَاهُ أَبُو الْحسن من قِرَاءَة الْأَعْمَش (لَنُثْوِيَنَّهم مِنَ الجَنَّة غُرَفاً) [العنكبوت: ٥٨] فَإِنَّهُ قَالَ لَا يُعجِبُني؛ لِأَنَّك لَا تَقول أَثْوَيْتُه الدارَ. قَالَ أَبُو عَليّ: هَذَا الَّذِي رَوَاهُ أَبُو الْحسن يَدُلُّ على أَن ثَوَيَ لَيْسَ بمتعَدٍّ، وَكَذَلِكَ تَفْسِير أبي عبيد أنَّه النازلُ فيهم، وَوَجهه أَنه كَانَ فِي الأَصْل لَنُثْوِيَنَّهم فِي غُرَف، كَمَا تَقول أَثْوَاهم من الْجنَّة فِي غُرَف، وحُذف الجارُّ كَمَا حُذف من قَوْله أَمَرْتُك الخيرَ، ويُقوِّي ذَلِك أَن الغُرَف وَإِن كَانَت أَمَاكِن مختصَّةً فقد أُجرِيَت المختصةُ من هَذِه

الظُّروف مُجْرى غير المختصَّةِ، نَحْو قَوْله: كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثعلبُ، وَنَحْو ذَهَبْت الشامَ عِند سيبويه، ويُقوِّي الوجهَ الأول قولُه تَعَالَى: **سمم** نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ**سمم** [الزمر:٧٤]".

فنرى في هذا المثال أن ابن سيده ينصر مذهب الكوفيين المتمثل بأبي الحسن الأخفش.

ففي هذه الأمثلة من كلامه يظهر جلياً كيف أنه يأخذ في الغالب بمذهب البصريين، وربما خالفهم، فيأخذ بمذهب الكوفيين وغيرهم، وهذا هو شأن علماء اللغة الأندلسيين، وليس عندهم وقوف عند إحدى المدرستين النحويتين، وإنما هم أكثر ميولاً إلى البصرية لأسباب ذكرت في الكتب التي عنيت بدراسة هذا الموضوع(١).

مما يمتاز به ابن سيده أنه لا يورد قراءة إلا ويوجهها إما تصريحاً وإما تلميحاً، وهذا في غالب الحروف القرآنية التي تكلم فيها؛ لأنه لا يوردها إلا في سياق شرح مادتها اللغوية، وهذا بحد ذاته توجيه، وربما زاد عليه شيئاً من الكلام الذي تقتضيه الصناعة النحوية، وهذا وقع له في كثير من المواد التي أورد فيها قراءات.

من التوجيهات ما يكون من اجتهاده هو، وبما جادت به قريحته ومعرفته في العلم، ومنها ما يكون بالنقل من غيره.

فمن الأمثلة على ذلك قوله:

"ونَظيرُ غلطِهم فِي همز مَصايب غَلَطُ من قَرَأَ (معائِش) [الأعراف: ١٠] بِالْهَمْز لِأَن الياءَ فِيهَا عينٌ فَلَا تهمز كَمَا لَا تُهمَز مَقَاوِم جمع مَقَامٍ، قَالَ الفرزدق:

(١) انظر: في أصول النحو، الأفغاني (٢٣١-٢٣٣)، أثر المدرسة البصرية في النحو الأندلسي، كرار (١٠٧).

وإنِّي لَقَوَّام مَقَاوِمَ لم يكُنْ جَريرٌ وَلَا مَوْلى جَريرٍ يَقومُها

قال الفارسي: قال أبو عثمان: إنما أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ولم يكن له علم بالعربية وقد حمل الهمزة في مصائب على الهمزة في إسادة، أي أنها بدل من الواو كما أنها في إسادة بدل من الواو، وقد أريتك حكم بدل الهمزة من الواو كيف هو، وأعلمتك أن أبا عمرو يذهب إلى أن بدل الهمزة من الواو المكسورة لأولا غير مطرد، وأعلمتك كيف استدل الفارسي على صحة ما ذهب إليه أبو عمرو من كلام سيبويه، وإذا لم يكن هذا مطردا في الواو أولا فحكمه أن لا يجوز فيما لم يكن أولا؛ لأن التغاير أشد اعتقابا على الأول في هذا الباب، وبهذا رد الفارسي على الزجاج هنا، وقد لخصنا جميع ذلك آنفا، فهذا شيء عرض في مصائب".

١- سلك ابن سيده في توجيه القراءات ما تهيأ له من الطرق التي توجبها الصنعة النحوية، وأود أن أذكر من كلامه بعض النماذج التي تدل على ذلك:

أولا: التوجيه ببيان المعنى اللغوي:

- ومثال ذلك قوله: " قِرَاءة مَن قَرأَ (مِمَّن كَذَب بآيَات الله) [الأنعام:١٥٧] بالتخفِيف، دخولُ الْبَاء فِيهَا على المعْنى؛ لأَنَّه فِي معنَى كَفَر بآيَات اللهِ".
- وقوله:" فَأَما قِراءة من قَرَأَ (يَكَادُ سَنَاءُ بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ) [النور:٤٣]، فَإِن السَّنَاء بالمدِّ الارتفاعُ، فَلَمَّا كَانَ سَنَا البَرْقِ مُسْتَطِيراً مُرتفعاً ساغَ فِيهِ المدُّ ذَهاباً إِلَى الِارْتفَاع".

ثانيا: التوجيه بالاشتقاق والأصل الصرفي:

- ومن أمثلته قوله: " قِراءةُ من قَرأ (أَو جاءَ أَحَدٌ مِنْكم من الغَيْط) [النساء:٤٣]مُخَفَّفة الْيَاء، يجوز أَن يكونَ أصلُه غَيِّطاً، وأصلُه غَيْوط، ففُعِل بِهِ مَا فُعِل بَمَيْت من مَيِّت".

- وقوله:" وقراءةُ من قَرَأَ: چ نُشْراً چ [الأعراف:٥٧] يتَحَمَّل الْوَجْهَيْنِ أَن يكون جمعَ فَعُول، فخفَّف الْعين كَمَا يُقَال كُتْبٌ ورُسْلٌ، وَأَن يكون جمع فاعِل، كبازِلٍ وبُزْلٍ، وعائِطٍ وعِيطٍ".

ثالثا: التوجيه باللغات:

- ومن أمثلة ذلك قوله:" ابْن جني: من قَرَأَ: (فإنّ لكُم مَا سئلْتم) [البقرة:٦١] أَخذه من لُغَة من قَالَ سِلْت تسال فِيمَن قَالَ هما يتساولان، وَمن لُغَة من قَالَ سَأَلت تسْأَل، فالكسرة للغة الأولى والهمز للغة الثَّانِيَة".
- وقوله:" صَاحب الْعين: أنْطَيْت لُغَة فِي أَعْطَيْت، وَقد قرئَ: (إنّا أنْطَيْناك الكوثَر)" [الكوثر:١].

رابعا: التوجيه بذكر النظير من القرآن:

- ومثاله قوله: " ابْن جني، الْجمع أَسْوُق وأَسْؤُقٌ وسُؤُوقٌ وسُوُوق وسُؤق وسُوْق، قَالَ: سُؤْق بِالْهَمْز على توهم الضمة وَاقعَة على الْوَاو فضارع بَاب (أُقِّتت)، عَليّ: أما قِرَاءَة من قَرَأَ: چ وَكَشَفَتْ عن سَأْقَيْهَا چ [النمل: ٤٤] فَإِنَّهُ هَمَز لمشابهة الْألف الْهمزَة".

المبحث الرابع: مصادر القراءات في كتابه

قد علم أن ابن سيده كان واسع الاطلاع، قليل النظير في حفظ اللغة ومعرفة أسرارها، وهذا موجب لكثرة مصادره في شتى اتجاهات المعرفة في كتابه هذا، وهي كذلك في تقديري، إلا أن المؤلف قد جرى في التعامل معها على عادة اللغويين والنحويين عموماً، والأقدمين منهم خصوصاً من عدم التصريح بأسماء المصادر في الغالب، وفي تقديري أن أسماء المصادر في كتابه بالنسبة لمادة القراءات هي على أسلوبين:

الأول: أنه ذكر أسماء العلماء دون الإشارة إلى تعيين المؤلفات التي استقى منها هذه النقول، وكثرة النقول عنهم تدل على أنه نقل من كتبهم دون واسطة، مثل: سيبويه في كتابه، وابن جني في المحتسب، والزجاج في إعراب القرآن، وثعلب، واللحياني في النوادر، والأخفش في معاني القرآن.

الثاني: مصادر نقل منها ولكن لم يذكر عنها شيئاً، وهذه يمكن الاجتهاد في تعيين بعضها، والظن بأنه اطلع عليها وأخذ منها وذلك لأمرين اثنين:

أحدهما: شهرة هذه المصادر في زمنه، وكونها عمدة في بابها.

وثانيهما: وجود مادتها العلمية مضمنة في الكتاب.

وهذه المصادر مثل: السبعة لابن مجاهد، الروضة للطلمنكي، التيسير وجامع البيان للداني.

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث وختام هذه الدراسة، أحب أن أحيط القارئ علما بأهم النتائج التي توصلت إليها من هذه الجولة البحثية في هذا الموضوع، وهي:

أن بين العلوم العربية والقرائية تداخلاً وتشابكاً كبيراً، بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر، فأقوى مصدر للغة العربية هو القرآن الكريم بقراءاته، كما أن موافقة العربية شرط من شروط قبول القراءة القرآنية.

أن ابن سيده كان على دراية كبيرة بعلم القرءات، يدل على ذلك مقدار القراءات التي أوردها في كتابه المخصص ومنهجه في التعامل معها.

أن ابن سيده قد وجه كثيراً من القراءات بالنص على وجهها لفظاً خاصاً بها، وكثير من القراءات سكت عن توجيهها اتكالاً على التوجيه السياقي؛ لأنها في جميع الأحيان إنما ترد في سياق بيان أبنية مادة من المواد اللغوية، وبالنظر في السياق يعرف التوجيه.

أن ابن سيده كان يقول في القراءات وتصنيفها إلى متواتر وشاذ بقول جمهور العلماء المشهور في زمنه بحسب استقراء كلامه وعدم مخالفته لهم.

أن ابن سيده في استعماله لبعض المصطلحات كان يذهب في ذلك مذهب اللغويين، مثل: كلمة (شاذ)، و (قرئ) المبني للمفعول، و (نادر)، ولا يذهب في ذلك مذهب القراء، وبين الاصطلاحين اختلاف كما هو معلوم.

انحصرت ضروب تعامله مع القراءات التي يوردها إلى ثلاثة أضرب:

سبب الإيراد للقراءات، هو إثبات معنى لغوي أو بنية اشتقاقية صرفية.

الضبط، والغالب عليه إهماله اتكالاً على سياق المادة إذ ذاك بين فيها، وفي كثير من الأحيان كان ينص على ضبط الألفاظ بما تحتاج إليه من أنواع الضبط.

التوجيه، وذلك إما بالنص على توجيه القراءة على ما تقتضيه الصناعة النحوية واللغوية، أو بترك ذلك اتكالاً على السياق في بيان المادة التي منها الحرف المختلف فيه.

مذهب ابن سيده النحوي هو مذهب أئمة المدرسة الأندلسية التي تجمع بين المدرستين البصرية والكوفية وهي أميل كثيراً إلى البصرية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

والحمد لله رب العالمين